صعاليك الصَّحافة

- ١ -

لمَّا ظهر كتابي (وحي القلم)[١] حملت منه إلى فضلاء كتَّابنا في دور الصُّحف والمجلات أهديه إليهم ؛ ليقرؤوه ، ويكتبوا عنه ، وأنا رجلٌ ليس فيَّ أكثر ممَّا فيَّ ، كالنَّجم يستحيل أن يكون فيه مستنقعٌ ؛ فما أعلم في طبيعتي موضعاً للنِّفاق ، تتحوَّل فيه البصلة إلى تفَّاحة ، ولا مكاناً من الخوف ، تنقلب فيه التُّفَّاحة إلى بصلةٍ ، ولست أهدي من كتبي إلا إحدى هديتين : فإمَّا التَّحيَّة لمن أثقُ بأدبهم ، وكفايتهم ، وسلامة قلوبهم ، وإمَّا إنذار حربٍ لغير هؤلاء ! .

والقرآن نفسُه قد أثبت الله فيه أقوالَ مَنْ عابوه ، ليدلَّ بذلك على أنَّ الحقيقةَ محتاجةٌ إلى من ينكرها ، ويردُّها ، كحاجتها إلى من يقرُّ بها ، ويقبلها ؛ فهي بأحدهما تثبت وجودها ، وبالآخر تثبت قدرتها على الوجود ، والاستمرار .

والشُّعور بالحقِّ لا يخرس أبداً ، فإذا كانت النَّفس قويَّةً صريحةً مرَّ من باطنها إلى ظاهرها في الكلمة الخالصة ، فإن قال : لا ، أو نعم ؛ صدق فيهما ؛ وإذا كانت النَّفس ملتويةً ؛ اعترضته الأغراض ، والدَّخائل ، فمرَّ من باطنٍ إلى باطنٍ حتَّى يخلص إلى الظَّاهر في الكلمة المقلوبة ؛ إذ يكون شعوراً بالحقِّ يغطِّيه غرضٌ آخر ، كالحسد ، ونحوه ، فإن قال : لا ، أو نعم ؛ كذب فيهما جميعاً .

* * *

وكنت في طوافي على دور الصُّحف ، والمجلات أحسُّ في كلٍّ منها سؤالاً يسألني به المكان : لماذا لم تجئ ؟ فإنِّي في ابتداء أمري كنت نزعت إلى العمل في الصَّحافة ، وأنا يومئذٍ متعلِّمٌ ريِّض ، ومتأدِّبٌ ناشىء ، ولكنَّ أبي - رحمه الله - ردَّني عن ذلك ، ووجَّهني في سبيلي هذه ، والحمد لله ، فلو أنَّني نشأت صحافيّاً ؛ لكنت الآنَ كبعض الحروف المكسورة في الطَّبع .

---

(١) يعني الجزءين : الأول ، والثاني في طبعتهما الأولى . (س) .

وللصَّحافة العربيَّة شأنٌ عجيبٌ ، فهي كلَّما تمَّت ؛ نقصت ، وكلَّما نقصت ؛ تمَّت ؛ إذ كان مدار الأمر فيها على اعتبار أكثر مَنْ يقرؤونها أنصاف قرَّاءٍ ، أو أنصاف أمِّيِّين ؛ وهي بهذا كالطَّريقة لتعليم القراءة الاجتماعيَّة ، أو السِّياسيَّة ، أو الأدبيَّة فتمامُها بمراعاة قواعد النَّقص في القارئ . . . وما بدَّ أن تتقيَّد بأوهام الجمهور أكثر ممَّا تتقيَّد بحقيقة نفسها ؛ فهي معه كالزَّوجة الَّتي لم تلد بعدُ لها مِنْ رجُلها مَنْ يأمرها ، ويجعلها في حكمه ، وهواه ، وليس لها من أبنائها مَنْ تأمرهم ، وتجعلهم في طاعتها ، ورأيها ، وأدبها ؛ ثمَّ هي عمل السَّاعة ؛ فما أبعدها من حقيقة الأدب الصَّحيح ؛ إذ ينظر فيه إلى الوقت الدَّائم ، لا إلى الوقت الغابر ، ويراد به معنى الخلود ، لا معنى النِّسيان .

ولا يقتل النُّبوغَ شيءٌ كالعمل في هذه الصَّحافة بطريقتها ؛ فإنَّ أساس النُّبوغ (ما يجب كما يجب) : وأدبه العمق ، والتَّغلغل في أسرار الأشياء ، وإخراج الثَّمرة الصَّغيرة من مثل الشَّجرة الكبيرة بعمل طويلٍ دقيقٍ ، أمَّا هي فأساسها (ما يمكن كما يمكن) ودأبها السُّرعة ، والتَّصفُّح ، والإلمام ، وصناعةٌ كصناعة العنوان لا غير .

فليس يحسن بالأديب أن يعمل في هذه الصَّحافة اليوميَّة إلا إذا نضج ، وتمَّ ، وأصبح كالدَّولة على « الخريطة » لا كالمدينة في الدَّولة في الخريطة ، فهو حينئذٍ لا يسهل محوه ، ولا تبديله . . . ثُمَّ هو يمدُّها بالقوَّة ، ولا يستمدُّ القوَّة منها ، ويكون تاجاً من تيجانها ، لا خرزة من خرزاتها ، ويقوم فيها كالمنارة العظيمة تُلقي أشعَّتها من أعلى الجوِّ إلى مدىً بعيدٍ من الآفاق ، لا كمصباح من مصابيح الشَّارع ! .

وحالة الجمهور عندنا تجعل الصَّحافة مكاناً طبيعيّاً لرجل السِّياسة قبل غيره ؛ إذ كان الرَّجل السِّياسيُّ هو صوت الحوادث سائلاً ، ومجيباً ، ثمَّ يليه الرَّجل شبه العالم ، ثُمَّ الرَّجل شبه الممثِّل الهزليِّ . . . والأديبُ العظيم فوق هؤلاء جميعاً ، غير أنَّه عندنا في الصَّحافة وراءهم جميعاً ! .

* * *

ولمَّا فرغت من طوافي على دور الصُّحف ؛ جاءت هي تطوف بي في نومي ، فرأيتني ذات ليلةٍ أدخل إحداها لأهدي (وحي القلم) إلى الأديب المتخصِّص فيها

للكتابة الأدبيَّة ، ودلُّوني عليه ، فإذا رجلٌ مربوعٌ ، مشوَّه الخلق ، صغير الرَّأس ، دقيق العنق ، جاحظ العينين ، تدوران في مِحجريهما دورةً وحشيَّةً كأنَّما رعَّبته الحياة مذ كان جنيناً في بطن أمِّه ؛ لأنَّه خلق للإحساس والوصف ، أو كأنّما رُكِّب فيه هذا النَّظر السَّاخر ؛ ليرى أكثر ممَّا يرى غيره من أسرار السُّخريَّة ، فينبغ في فنونها ، أو هو قد خلق بهاتين العينين الجاحظتين دلالةً عليه من القدرة الإلـٰهيَّة بأنَّه رجلٌ قد أرسل لتدقيق النَّظر .

وقال الَّذي عرَّفني به : حضرتُه عمرو أفندي الجاحظ . . . وهو أديبُ الجريدة .

قلت : شيخنا أبو عثمان عمرو بن بحر ؟ .

فضحك الجاحظ ، وقال : وأديب الجريدة ، أي : شحَّاذ الجريدة ، يكتب لها كما يقرأ القارئ على ضريحٍ بالرَّغيف ، والجبن ، والبيض ، والقرش .

قلت : إنَّا لله ! فكيف انتهيت يا أبا عثمان إلى هذه النِّهاية ، وكنت من أعاجيب الدُّنيا ؟ وكيف خِبْتَ في الصَّحافة ، وكنت رأساً في الكلام ؟ .

قال : نجحت أخلاقي ، فخابت آمالي ، ولو جاء الوضع بالعكس ؛ لكان الأمر بالعكس ، والمصيبة في هذه الصُّحف : أنَّ رجلاً واحداً هو قانون كلِّ رجلٍ هنا .

قلت : وذاك الرَّجل الواحد ما قانونه ؟

قال : له ثلاثة قوانين : الجهات العالية وما يستوحيه منها ، والجهات النَّازلة وما يوحيه إليها ، وقانون الصِّلة بين الجهتين ، وهو . .

قلت : وهو ماذا ؟

فحملق فيَّ ، وقال : ما هذه البلادة ؟ وهو الذي « هو » . . . أما ترى الصَّحيفة ككلِّ شيءٍ يباع ؟ وأنت فخبِّرني ـ ولد الدَّولة ، والصَّولة عند القرَّاء ـ ألم تر بعينيك : أنَّك لو جئت تدفع ثمانمئة قرشٍ ؛ لكنت في نفوسهم أعظم ممَّا أنت وقد جئت تهدي ثمانمئة صفحةٍ من البيان ، والأدب ؟

قلتُ : يا أبا عثمان ! فماذا تكتب هنا ؟

قال : إنَّ الكتابة في هذه الصَّحافة صورةٌ من الرُّؤية ، فماذا ترى أنت في . . وفي . . وفي . . ؟ لقد كنَّا نروي في الحديث : « يكون قومٌ يأكلون الدُّنيا

بألسنتهم ، كما تلحس الأرضَ البقرةُ بلسانها[١] » ، فلعلَّ من هذه الألسنة الطَّويلة لسان صاحب الجريدة .

قلت : ولكنَّك يا شيخنا ! قد نسيت القرَّاء ، وحكمهم على الصَّحيفة .

قال : القرَّاء ما القرَّاء ؟ وما أدراك ما القرَّاء ؟ وهل أساسُ أكثرهم إلا بلادة المدارس ، وسخافة الحياة ، وضعف الأخلاق ، وكذب السِّياسة ؟ ! إنَّ الإبداع في أكثر ما تكتب هذه الصُّحف ، أن تجعل الكذب يُكذب بطريقةٍ جديدةٍ . وما دام المبدأ هو الكذب ؛ فالمظهر هو الهزل ، والنَّاس في حياةٍ قد ماتت فيها المعاني الشَّديدة القويَّة السَّامية ، فهم يريدون الصَّحافة الرَّخيصة ، واللُّغة الرَّخيصة ، والقراءة الرَّخيصة ؛ وبهذا أصبح الجاحظ وأمثاله هم (صعاليك الصَّحافة) .

ودُقَّ الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التَّحرير ، فنهض إليه ، ثمَّ رجع بعينين ، ولا يقال فيهما جاحظتان ، بل خارجتان . . . وقال : أفٍّ ! ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود : ١٦] .

« كلا والذي حرَّم التَّزيُّد على العلماء ، وقبَّح التَّكلُّف عند الحكماء ، وبهرَجَ الكذَّابين عند الفقهاء ، لا يظنُّ هذا إلا من ضلَّ سعيُه »[٢] .

قلت : ماذا دهاك يا أبا عثمان ؟ !

قال : ويحها صحافةٌ ! قل في عمِّك ما قال المثل : جَحَظ إليه عمله[٣] .

قلت : ولكن ما القصَّة ؟

قال : ويحها صحافة ! وقال الأحنف : « أربعٌ من كنَّ فيه كان كاملاً ، ومن تعلَّق بخَصلة منهنَّ كان من صالحي قومه : دينٌ يرشده ، أو عقلٌ يسدِّده ، أو حسَبٌ يصونه ، أو حياءٌ يقناه » . وقال : « المؤمن بين أربع : مؤمنٌ يحسده ، ومنافقٌ يبغضه ، وكافرٌ يجاهده ، وشيطانٌ يفتنه . وأربعٌ ليس أقلُّ منهنَّ : اليقين ، والعدل ، ودرهمٌ حلالٌ ، وأخٌ في الله » . وقال الحسن بن عليٍّ[٤] . . .

---

(١) رواه أحمد (١/١٧٦) .

(٢) هذه الجملة من كلام الجاحظ . (ع) .

(٣) يريدون : أنَّه إذا نظر في عمله رأى سوء ما صنع . (ع) .

(٤) هذه طريقة الجاحظ يخلط الكلام دائماً بالنقل . (ع) .

قلت : يا شيخنا ، دعنا الآن من الرِّواية ، والحفظ ، والحسن ، والأحنف ؛ فماذا دهاك عند رئيس التَّحرير ؟

قال : لم أحسن المهاترة في المقال ؛ الذي كتبته اليوم . ويقول رئيس التَّحرير : إنْ كان التَّمويه رذيلةً ؛ فإنَّ نصفه الآخر يدلُّ على أنَّه تمويهٌ . ويقول : إنَّ سموَّ الكتابة انحطاطٌ فصيحٌ ؛ لأنَّ القرَّاء في هذا العهد لا يخرَّجون من حفظ القرآن ، والحديث ، ودراسة كتب العلماء ، والفصحاء ، بل من الرِّوايات ، والمجلات الهزليَّة ، وحفظ القرآن ، والحديث ، وكلام العلماء يضع في النَّفس قانون النَّفس ؛ ويجعل معانيها مهيَّأةً بالطَّبيعة للاستجابة لتلك المعاني الكبيرة في الدِّين ، والفضيلة ، والجِدِّ ، والقوَّة ؛ ولكن ماذا تصنع الرِّوايات ، والمجلات ، وصور الممثِّلات ، والمغنِّيات ، وخبر الطالب فلان ، والطالبة فلانة ، والمسارح ، والملاهي ؟ .

ويقول رئيس التَّحرير : إنَّ الكاتب الذي لا يسأل نفسه ما يقال عنِّي في التَّاريخ هو كاتب الصَّحافة الحقيقيُّ لأنَّ القروش هي القروش ، والتَّاريخ هو التَّاريخ ؛ ومطبعة الصَّحيفة النَّاجحة هي بنت خالة مطبعة البنك الأهلي ؛ ولا يتحقَّق نسبٌ ما بينهما إلا في إخراج الورق الَّذي يُصْرَف كلُّه ، ولا يردُّ منه شيءٌ ! .

إنَّهم يريدون إظهار المخازي مكتوبةً ، كحوادث الفجور ، والسَّرقة ، والقتل ، والعشق ، وغيرها ؛ يزعمون : أنَّها أخبارٌ تروى ، وتقصُّ للحكاية ، أو العبرة ، والحقيقة : أنَّها أخبارهم إلى أعصاب القرَّاء .

* * *

ودُقَّ الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التَّحرير .

* * *